تيمورلنك ومحنة دمشق

803 هـ / 1401م

د.علاء محمود قداوي *

ينتمي تيمورلنك إلى بيت من أشراف المغول ، وكان جده الخامس قراجار من قادة جنكيز خان ، ولد في إحدى قرى كش من أعمال بلاد ما وراء النهر، وفي شبابه التحق في خدمة توغلق تيمور حاكم بلاد ما وراء النهر،ثم ما لبث ان انقلب عليه وأخضع سمرقند لحكمه ،وفي حدود سنة **765هـ /1364م** غدا تيمور سيدا بلا منازع على بلاد ما وراء النهر بعد أن تمكن من جميع معارضيه ، وكان أخرهم إلياس خواجه الذي كان ينافسه على حكم البلاد [1].

لم تتوقف طموحات تيمور عند حدود بلاده بل كان يريد لنفسه ان يكون الحاكم الأوحد على العالم وكان يعتقد ((أن الربع المعمور بأجمعه لا يستحق أن يتنازع من أجله سلطانان)) [2].

كما كان يعتقد بأنه صاحب الحق الشرعي في وراثة إمبراطورية أسلافه المغول التي خلفها جنكيز خان،ولهذا اندفع من أجل أن يستعيد كامل أراضي هذه الإمبراطورية ، فكان يضرم نيران الحروب سنويا في طول البلاد وعرضها من موسكو إلى نهر الكنج في بلاد الهند، ومن حدود الصين شرقاً حتى بلاد الشام غرباً [3] ، وكان استهدافه لبلاد الشام قد جاء في أعقاب سيطرته الكاملة على بلاد إيران وشمال الهند.

ففي سنة **802هـ/1399م** قاد جيوشه من شمال الهند باتجاه العراق وبلاد الشام في أعقاب تلقيه خبر وفاة برقوق سلطان الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام الذي وافته المنية في

---

* أستاذ مساعد ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العراق .

[1] عن حياة تيمور وحكمه لبلاد ما وراء النهر ، أنظر التفاصيل ، بكوبوفسكي ، أ. يو : تيمورلنك (وصف موجز لسيرة حياته) مجلة دراسات (تصدرها الجامعة الأردنية) المجلد الخامس العدد السابع تموز 1988 ، ص 110-114 .

[2] المرجع نفسه ، ص 138 .

[3] بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية ، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط7 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1977 ، ص 421 .

15شوال سنة **801هـ/1398م** . وكان تيمور قد ناصب برقوق العداء بسبب قبول برقوق وفادة السلطان أحمد الجلائري حاكم بغداد الذي كان قد لجأ إلى القاهرة في أعقاب غزو تيمور لبغداد سنة 795هـ/1393م وتمكين برقوق للسلطان أحمد الجلائري من استعادة بغداد التي حكمها باسم المماليك ، بعد أن طرد الحامية التيمورية منها سنة**796هـ/1394م** فضلا عن رفض برقوق طلبا لتيمور بتسليم الأمير التيموري اطليمش الذي كان قد وقع في كمين مملوكي في أثناء غزو تيمورلنك لأقليم الجزيرة الفراتية التابعة للمماليك سنة **795هـ/1393م** [4].

تقدم تيمور بقواته أولاً نحو العراق فاستعاد احتلاله لبغداد بسهولة في سنة **803هـ/1401م** ومنها توجه نحو حلب التي كان قد فر إليها السلطان أحمد الجلائري وأتباعه على أن نائب حلب المملوكي ومعه نواب الشام برزوا بقواتهم التي تقدر بثلاثة آلاف فارس فاصطدموا بقوات تيمور الذي أنزل بهم هزيمة ساحقة في 11ربيع الأول سنة**803هـ/30** تشرين الثاني **1401م** ثم اقتحم حلب فأشعلت عساكره النيران وأخذت في الأسر والنهب والقتل، وعمل تيمور من رؤوس القتلى منائر عدة وكانت تزيد على عشرين ألف رأس ، ثم رحل تيمور من حلب بعد ان أقام فيها شهراً قاصداً دمشق [5].

اهتزت مصر لأنباء الهزيمة وما جرى لأهل حلب ، وخرج السلطان المملوكي فرج الذي كان قد حل محل والده المتوفي برقوق على سدة على رأس الجيش المملوكي من القاهرة ومعه الخليفة والقضاة ، فدخل دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة **803 هـ / 1401/2/25 م** وأخذ يطمئن السكان الذين كانت قد اضطربت أحوالهم لما سمعوه عن أعمال تيمور في حلب ، كما أخذ يقوي أسوار المدينة ، ويستعد لمواجهة تيمورلنك الذي كانت قواته قد نزلت أطراف دمشق . وفي **19** جمادى الأولى سنة **803 هـ**

---

[4] ابن تغري ، برودي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ج12 ، ص 43 ، 219-220 .
قداوي ، علاء محمود : العراق في القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، مقدمة إلى عمادة كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ص 70-71 ، 74 ، 78 .

[5] ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد : أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، 1971 ، ط2 ، ص 134-135 . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 222-225 .

1401/1/6/ م حدثت المواجهة بينهما ولم تستطع القوات المملوكية الثبات بسبب جسامة الخسائر التي اضطرتها إلى الانسحاب إلى داخل دمشق [6].

وبدلاً من إعادة تنظيم الجيش لمواجهة تيمور ثانية انشغل بعض الأمراء بالإقطاعات والوظائف والسلطة في حين انشغل البعض الآخر في التآمر على السلطان لعزله وتعيين لاجين الجركسي بدلاً منه وعندما علم السلطان بأمر المؤامرة ترك دمشق مع عدد من مؤيديه هارباً إلى القاهرة وذلك في 21 جمادى الأولى /1/8 ، ولما اكتشف بقية أمراء الحملة هرب السلطان لحقوا به جماعات ، جماعات [7] تاركين الدمشقيين يواجهون مصيرهم المحتوم .

علم تيمور بأمر هروب السلطان المملوكي فرج عن طريق أحد جواسيسه فأمر حفيده أبا بكر بمحاصرة دمشق وأن يمنع أي شخص من الفرار منها ، وبعث قوة من جيشه لتعقب الفارين ، فساروا في أثرهم وتمكنوا من قتل عدد كبير منهم وأسرهم وعادوا إلى دمشق لينضموا إلى القوة الرئيسة التي كانت قد أطبقت الحصار على المدينة بعد أن كانت قد نهبت القرى والبساتين المحيطة بها [8].

لم يكن موقف سكان دمشق متخاذلاً بعد هروب سلطانهم ، إذ إنهم لما اكتشفوا هروبه غلقوا أبواب المدينة ، وصمموا على مواصلة المقاومة ، فوقع قتال عنيف بينهم وبين الغزاة على أسوار المدينة قتل في أثره زهاء ألف مقاتل من الغزاة حتى أضطر هؤلاء إلى التراجع عن الأسوار [9].

أدرك تيمور صلابة الدمشقيين فلجأ إلى مخادعتهم ، فأرسل يطلب المفاوضات في الصلح ، فوجد الدمشقيون في هذا الطلب فرصة للخلاص من عواقب الحصار ، فاختاروا القاضي تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي مفاوضاً عنهم ، إذ كان يجيد الفارسية والتركية ، فأنزلوه من

---

[6] المصدر نفسه ، ج2 ، ص 135-136 . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 227 ، 230 ، 232-235 .

[7] المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبدا الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، 1072 ، ج3 ، ق3 ، ص 1044-1045 ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج2 ، ص 137 .

[8] الشامي ، نظام الدين : ظفرنامة ، بسعي واهتمام وتصحيح فلكس تاور براغ ، 1937 ، ص 233 ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج2 ، ص 137 .

[9] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 146 ، ابن إياس ، محمد بن أحمد : تاريخ ابن إياس المسمي ((بدائع الزهور في وقائع الدهور)) ط1 ، مطبعة بولاق بمصر 1311 هـ ، ج1 ، ص 331 .

السور ، وفي صحبته خمسة من علماء دمشق من بينهم ابن خلدون ، تم ذلك بالرغم من معارضة نائب قلعة دمشق [10] .

استقبل تيمور الوفد بترحاب وقال لهم إن دمشق ((بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي)) وزار مع الوفد قبري أم سلمة وأم حبيبة زوجتي الرسول (ص) وبلال الحبشي (رض) ووعد ببناء ضريحين لهما [11] كما دخل في حوار مع ابن خلدون فسأله عن سبب مجيئه من بلاد المغرب إلى مصر وعلاقة برقوق به واستفسر منه عن جغرافية المغرب وأمره أن يكتب له وصفاً جغرافياً عنها ، فأنجز له هذه المهمة بعد أيام من المقابلة ، وكان ابن خلدون قد كسب احترام تيمور عندما أشار عليه بأنه سلطان العالم وأن علماء المغرب ومتصوفيه قد تنبأوا بظهوره وأنه قابل عدداً منهم ولهذا فإنه كان متلهفاً للقائه [12] وأشار بأن ((لله المنة ، إذ أمتد بي زماني ومنّ الله عليّ بأن أحياني حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة ، والسالك شريعة السلطنة على الطريقة ، فإذا كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف ، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف)) [13] .

استغل ابن خلدون علامات السرور والإعجاب لتيمور فطلب منه أن لا يتعرض لرجال الإدارة وأن يقرهم في وظائفهم إذ قال له ((أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي فقال : قل الذي تريد أفعله لك ... فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر من القراء والموقعين والدواوين والعمال صاروا إلى إيالتك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانهم كبير وعمالاتكم متسعة وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صفوف الخدم أشد من حاجة غيركم فقال وما تريد لهم ؟ قلت مكتوب أمان يستأمنون إليه ويعولون في أحوالهم عليه ، فقال لكاتبه اكتب لهم بذلك فشكرت ودعوت وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان وختمه بخاتم

---

[10] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 239 ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج12 ، ص 331 .
[11] الشامي : ظفرنامة ، ص 233 ، المقريزي : السلوك ، ج3 ، ق3 ، ص 1046 ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 331 .
[12] ابن خلدون ، عبد الرحمن : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، 1979 ، ص 411-414 ، 416 .
[13] ابن عربشاه ، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ط1 ، مطبعة النيل ، القاهرة 1285 هـ ، ص 107-108 .

السلطان)) [14] كما أعطى لابن مفلح كتاب أمان لأهل دمشق مع قائمة بأسماء من استقرت عليهم الوظائف [15].

تركت هذه المقابلة في نفس ابن مفلح انطباعاً حسناً عن تيمور فرجع إلى المدينة وأخبر أهلها بما شاهد وسمع ، وقرأ عليهم كتاب الأمان على منبر الجامع الأموي ودعاهم للكف عن القتال وإجراء الصلح فوافقوه ، في حين رفض ذلك نائب القلعة الذي هدد بحرق المدينة إن لم يتراجعوا عن الصلح فلم يلتفتوا إلى تهديده ، وفتحوا الباب الصغير لأحد أمراء جيش تيمور الذي أخذ مكانه بجوار الباب بحجة الحيلولة دون دخول العساكر إلى المدينة الا بأمر تيمور [16].

وما أن أطمأن تيمور لسكون أهل دمشق وركونهم إلى الأمان الذي منحهم إياه ، حتى طلب من ابن مفلح جباية ضريبة الصلح ، ومقدارها مليون دينار من أموال السلطان فرج وأمرائه والتجار الذين فروا من دمشق ، فاستجاب ابن مفلح مع أعيان المدينة الذين كانوا قد عاودوا مقابلته بناءً على طلبه فخلع عليهم وأقرهم على وظائفهم وأمرهم بالانصراف إلى دمشق [17]. وإبان ذلك كانت القوات التيمورية تدخل دمشق أفواجاً ، وبعدها دخل تيمور المدينة ، واتخذ عدة إجراءات فجعل شاه ملك نائباً عنه عليها كما عين القضاة والإداريين وأمر بصلب عدد من جنده قاموا بأعمال نهب بعد دخولهم دمشق ، فوقع فعله هذا في نفوس الدمشقيين موقعاً حسناً وصلى الجمعة بالمسجد الأموي ، وخطب له في المسجد قاضي القضاة محي الدين محمود الحنفي ، وبعدها أمر تيمور جنوده بحصار قلعة دمشق التي استسلمت بعد شهر من المقاومة [18].

جمع ابن مفلح مبلغ ضريبة الصلح فبعثه إلى تيمور ولكن هذا رفض استلامها مطالباً بعشرة ملايين دينار ، فاضطر ابن مفلح وصحبه إلى إعادة الجمع إذ فرضوا على عقاراتها كلها أجرة ثلاثة أشهر وألزموا كل فرد من سكانها بدفع عشرة دراهم ، وفرضوا الضرائب على الأوقاف أيضاً فأخذوا مئة ألف درهم من الأوقاف المخصص للجامع الأموي ، وقد استعمل العنف في

---

[14] ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 422-423 .
[15] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 240 .
[16] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 1046 ، 1047 ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج2، ص 137 .
[17] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 1047 ، 1049 ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 232-333 .
[18] المقريزي : السلوك ج3، ق3 ، ص 1047 ، 1048 ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج2، ص 138 ، ابن عرب شاه : عجائب المقدور ، ص 216 .

الجباية ، وبعد أن سلموا المبلغ إلى تيمور مع أموال الهاربين والسلاح [19] طلب منهم تيمور أن يدونوا له جميع خطط دمشق وحاراتها ، ففعلوا ذلك فدفعها إلى أمرائه فتسلم كل أمير حارة منها فانطلق هؤلاء مع أتباعهم إلى الأقسام المخصصة لهم وأنزلوا بالسكان من أجل استخراج الأموال أقسى أنواع العذاب كالضرب والعصر والحرق بالنار وقد وصف بعض المؤرخين أساليب التعذيب ، منها أنهم كانوا يضعون الحبل بكتفي الرجل ويلوونه بالعصا حتى تنخلع الكتفان أو أن يذر الرماد في أنف المعذب ثم يعلق بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته حتى تكاد تخرج روحه فيخلى عنه ثم تعاد العقوبة حتى يستخرج ما لديه من أموال ، كما وصفوا لنا أنواع العذاب الذي ارتكبوه بحق النساء والأطفال . واستمرت عمليات التعذيب على هذا المنوال مدة تسعة عشر يوماً كان أخرها في **18** رجب سنة **803 هـ / 15 آذار 1401 م** فهلك بسبب ذلك آلاف من سكان دمشق وسلبت أموالهم وبعد ذلك أطلق تيمور العنان لجنده من المشاة بحرية التصرف على هواهم ، فدخلوا الأحياء السكنية والمساجد والأسواق والمؤسسات الحكومية وسيوفهم بأيديهم فنهبوا ما تبقى من أموال وآلات وسبوا النساء وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من عمره خمس سنوات فما دون وما كادوا يفرغون من هذه الأعمال حتى أمرهم تيمور ((بطرح النار في المنازل وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق البلد كلها ، وصار لهيب النار يرتفع إلى السحاب وعملت النار ثلاثة أيام .. وقد احترقت ((المدينة)) كلها ... وذهب مساجدها ومدارسها ومشاهدها وسائر دورها وقياسرها وأسواقها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد أقفرت من السكان وامتلأت أرضها بجثث القتلى و لم يبقى بها دابة تدب الا أطفال يتجاوز عددهم الألف فيهم من مات وفيهم من يجود بنفسه)) [20]. وكانت أكثر الأماكن تضرراً من الحريق المسجد الأموي الذي سقطت سقوفه وزالت أبوابه وتفطر رخامه و لم يبقَ غير جدرانه قائمة وانهارت المنارة الشرقية تماماً [21].

---

[19] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 1047 ، 1049 ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 232-333 .
[20] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 1050 ، 1051 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 244-245 ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 333 .
[21] المقريزي : السلوك ج3 ، ق3 ، ص 1051 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 245-246 .

وقد حاول الشامي المؤرخ الرسمي لتيمور ان يبعده من مسؤولية حرق المسجد الأموي عند ما أشار إلى أن حريق المسجد قد وقع بمحض المصادفة ، وأن تيمور أمر نائبه شاه ملك بالحفاظ على الجامع الأموي من الحريق ، ولكن جهوده ذهبت سدى ، إذا امتدت النيران إليه وانهارت منارته الشرقية [22]. وهذا الكلام لا يؤيده باقي المؤرخين الذين يضعون المسؤولية الكاملة في حرق المسجد على تيمور ، ومن هؤلاء المقريزي وابن خلدون ، وابن تغري بردي وابن إياس [23].

أما عن سبب حرق المسجد الأموي فيذكر شلتبيرجر أن أحد القضاة قد لجأ إلى تيمور وطلب منه الأمان لأتباعه ، فأمر بالنزول في المسجد الأموي فلما اجتمع فيه زهاء ثلاثين ألف نسمة غلق عليهم الأبواب ووضع أكواماً حشية حول المسجد أضرم فيها النيران فاحترق المسجد ومن فيه [24] كما أمر في الوقت نفسه بسوق الخيل على عشرة آلاف طفل كانوا قد جئ بهم إليه بعد أن فقدوا ذويهم فماتوا جميعاً ولما لامه بعض قواده على ما فعله بالمسجد الأموي وبقتله الأطفال أجابهم ((ما نزل على قلبي فيهم رحمة)) ثم عقب ((أنا غضب الله في أرضه ، يسلطني على من يشاء من خلقه)) [25].

إن ما واجهته دمشق على يد تيمورلنك لم يكن مجرد كارثة حربية ، وإنما كان كذلك كارثة حضارية كان لها أثر بالغ في انحطاط فنونها وتأخرها إلى أجيال فضلاً عن أعمال القتل والتدمير كان تيمور قد أفرغها من أرباب الصنائع والحرف من النساجين والخياطين والنجارين والنحار والنقاشين والبياطرة والخيمية والقواسين والصباغين وصانعي الأسلحة إضافة إلى أعداد كبيرة من علماء الشام وأطبائها رحلهم جميعاً إلى بلاد ما وراء النهر لاسيما عاصمة سمرقند [26].

مكث تيمور مع قواته بدمشق حوالي ثمانين يوماً ثم غادرها في الثالث من شعبان سنة **803 هـ / 1401/3/20 م** بعد أن كان قد أرسل الأمير سودون نقيب قلعة دمشق إلى القاهرة ومعه كتاب من تيمور إلى السلطان فرج ، أبدى تيمور في هذا الكتاب رغبته في الصلح على

---

[22] ظفرنامة ، ص 236 .

[23] السلوك ، ج3 ، ف3 ، ص1051 ، أنباء الغمر ، ج2 ، ص 138 ، التعريف بابن خلدون ، ص 417 ، النجوم الزاهرة ، ج12 ، ص 245 ، بدائع الزهور ، ج1 ، ص 334 .

[24] Schiltberger : The bandage and Travels of Johilterger (1396-1427) trans from latin by Telfar (London , 1970) P, 23 .

[25] ابن اياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 335 .

[26] ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص 239-240 ، 224 ، 226 ، 446 .

قاعدة تبادل الأسرى ، فوافق فرج على شروط الصلح وذلك بعد استشارة أمرائـــه ، وهـــذه الموافقة جاءت لاعتبارات داخلية تتمثل في حالة الانقسام في صفوف المماليك وضعف قدراتهم العسكرية التي لا تؤهلهم لخوض معركة جديدة مع تيمور ، كما أن تيمور كان يستهدف من وراء الصلح التفرغ لمواجهة خصمه اللدود السلطان العثماني بايزيد يلدرم ، فحـــدث تبـــادل للأسرى وعادت أسرى المماليك ومعهم هدايا من عند تيمور ، ثم غـــادر تيمـــور الشـــام [27] وبمغادرته انطوت صفحة كانت من أشد الصفحات إيلاماً لبلاد الشام عامة ومدينـــة دمشـــق خاصة .

[27] ابن اياس : بدائع الزهور ، ج1 ، ص 335-336 .